الفصل الرابع

الإعلام الحديث والمخطط الإقليمى

obeikandl.com

obeikandl.com

كان العرب منذ أقدم العصور وسيظلون فى وسط الأحداث العالميــة . يرجع هذا الى عدد من المتغيرات من بينها موقعهم الجغرافي المتوسط ، ومساهمتهم الهامة فى بناء الحضارات القديمة ، وعلاقتهم بالأديان السماوية . وإذا كانت الشعوب التى دخلت التاريخ من أوسع أبوابـه تواجه اليوم تأخر موقعها، وحلولها فى الصفوف الخلفيـة فأن هذه الشعوب لا تخرج من التاريخ وانما يظل فيها من يعمل ليستمر وجودها . لذلك فسواء شئنا أم أبينا ، وبغض النظر عما سنقوله عن النظام العالمي وعن العولمة فالعرب هم من أولى الأمم التي تعنيها هذه المفاهيم . ومجال هذه المفاهيم واسع ، وقد اخترنا جانبا نسلط عليه الضوء لعلاقته بالهوية الثقافية.

ننطلق فى محاولتنا من عدد من المسلمات الرئيسية : لأبناء كل مجتمع هوية ثقافية ، والهوية الثقافية هي كل غير جامد ينمو ويتغير ، كما يوجد النظام العالمي الذي يعتبره البعض أنه يتحول الى ما يسمى بالنظام العالمي الجديد ، العولمة ظاهرة ترتبط بالنظام العالمي ، وهى تعنى وتشتمل على مكونات كثيرة ترتبط بمختلف جوانب الحياة الاجتماعية من اقتصاد وسياسة وثقافة. العولمة ظاهرة تفرض نفسها على جميع بلدان العالم ، ولا يستطيع العرب تفادى تأثيراتها ، ولكن بالإمكان تفادى آثارها السلبيـــة فى معظم المجالات، والذي يهمنا فى هذه الورقة على وجه الخصوص هو تلك السلبيات التى تشكل تهديدا متوقعا للهوية الثقافية العربية . تبرز من هذه المسلمات تساؤلات كثيرة نذكر أهمها : هل يوجد ما يمكن أن يسمى بالنظام العالمي ؟ وهل يوجد ما يمكن أن يسمى بالنظام العالمي الجديد ؟ وهل للعولمة نتائج سلبية بالنسبة للنسق الثقافي العربى؟ وكيف يمكن

التعامل مع هذه النتائج السلبية وبأي وسيلة يمكن مواجهتها؟ وما هو دور التعليم فى هذه المواجهة؟ وما هو نوع التعليم المناسب لمجاراة طبيعة التغير الذي سيشهده القرن القادم ؟

2-النظام العالمي

إذا اعتبرنا أن النظام العالمي يعنى نسقا تتحدد من خلاله العلاقات بين شعوب الأرض فيمكن القول بأن مثل هذا النظام وجد منذ الأزمنة القديمة . فشعوب الأرض مختلفة، وقد طورت لنفسها أنظمة سياسية ذات معالم واضحة، ودخلت مع بعضها فى شبكة من العلاقات تنوعت بين قطبي التعاون والصراع . لكن المرء الذي يتحدث عن الأيام الأخيرة للقرن العشرين قد لا يعنيه كثيرا الغوص فى أعماق التاريخ للوصول الى الجذور البعيدة ، ويكفيه الرجوع بالذاكرة الى الوراء قليلا . وعليه فلن نرجع كثيرا الى الوراء ونكتفي بالحقبة التاريخية التى تبتدئ مع نهاية الحرب الكونية الثانية .

غيرت الأحداث التاريخية بجوانبها السياسية والعسكرية والاقتصادية التى أفرزتها تلك الحرب صورة النظام العالمي الذي كان سائدا من قبل تغييرا جوهريا . ولعل أهم عوامل التغيير تتمثل فى انتهاء الاستعمار الأوربي بمعناه التقليدي، وظهور الدول المستقلة حديثا، والتقدم التقني الهائل فى كل المجالات وخصوصا فى مجال الاتصالات، وبروز الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة كقطبين رئيسيين عمل كل منهما على استمالة أكبر عدد من بلدان العالم الى معسكره . وظهر ما يعرف بالمعسكر الغربي وبالمعسكر الشرقي . لقد لعبت القوة العسكرية دورا أساسيا فى تحديد هذه القطبية الثنائية ألا أن متغيرا آخر لا يقل أهمية ونقصد به الأيديولوجيا يعزى له الفضل فى رسم

ملامح كلا القطبين وإظهارهما بصورة الخصمين اللدودين .فأمريكا الرأسمالية اعتبرت الشيوعية أيديولوجية لا دينية واستبدادية ولا مكان فيها للفرد وحريته . وعلى الطرف الآخر نظر الاتحاد السوفيتي إلى أمريكا كدولة إمبريالية لا تعيش ألا على امتصاص خيرات الغير واستغلال الآخر أبشع استغلال . عمل كل قطب بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة لفرض سيطرته على أكبر جزء من العالم . وانتهت الحرب العالمية ولكن الحروب لم تنته بل أنها تكاثرت انتشرت . وهى حروب بين القطبين لكنها جرت فوق أرض ثالثه، تواجه فيها مواطنون من بلدان أخرى . كما وظفت الأيديولوجيا الى أقصى درجة ممكنة لكسب المؤيدين وبسط النفوذ .

وتتطور فى داخل النظام العالمي أنظمة فرعية تهتم فقط بعدد محدود من الأقطار التى ترتبط بعلاقات خاصة فيما بينها مثل النظام العربي الفرعي الذي تطور حول جامعة الدول العربية . بل أن هذا النظام الفرعي نفسه، يمكن أن ينقسم الى أنظمة فرعية أصغر، كما هو حاصل اليوم فى الوطن العربى على الأقل بالنسبة لنظامين فرعيين فيه الاتحاد المغاربي ومجلس التعاون الخليجي . ويوجد فى العالم أنظمة فرعية أخرى . كما أن الأقطار المنتمية الى هذه الأنظمة الفرعية وغيرها ممن لم تتم وحدت مجهوداتها وأنشأت منذ منتصف الخمسينات مجموعة دول عدم الانحياز . ويفترض كما هو واضح فى التسمية أن البلدان المنتمية لهذه المجموعة لن تنحاز فى سياساتها الى أحد القطبين وأن بإمكان البلد المنتمى لهذه المنظمة الثالثة اتخاذ قراراته الرئيسة بنفسه وبصورة مستقلة عن تأثير أحد القطبين . لا شك أن مجموعة عدم الانحياز لعبت دورا هاما فى الأحداث السياسية التى

ظهرت بعد منتصف الخمسينات ، وقامت بدور فى معادلة حفظ التوازن فى العالم ، ألا أن القرارات العالمية الهامة لم تتحرر من سيطرة أحد القطبين، كما لم تستطع أقطار العالم الثالث الوقوف على الحياد فى جميع الأوقات . ثم جاء الوقت الذي تغيرت فيه الأمور، وأنفرط فيه عقد الدول التى تجمعت حول الاتحاد السوفيتي، وأصبحت مجموعة من الدول المستقلة . تخلصت من أيديولوجية ظلت مسيطرة على مدى سبعين عاما، وأخذت باقتصاد السوق وبالتعددية الحزبية. وبدا العالم وكأنه أخذ بنظام عالمي أحادى القطبية . ولا نريد أن ندخل هنا فى حديث حول هذه الأحادية، والى متى ستدوم، ومن هي الأطراف المرشحة لتلعب دورا يجعلها تنافس الولايات المتحدة الأمريكية فى مجال السيطرة السياسية والاقتصادية والتكنولوجية. فلمثل هذا الحديث مكان آخر .

انتهت الحقبة التى تزعم فيها الاتحاد السوفيتي المعسكر الشرقي ، وزالت بذلك ما كان يعرف بالحرب الباردة ، وخسرت الشيوعية أرضا شاسعة قامت على أنقاضها دول كثيرة . دول تسابق قادتها للدخول ضمن المنظومة الغربية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية . وتسربت الى داخل هذه المجتمعات القيم والمعايير الغربية بسرعة هائلة أذهلت المفكرين حتى راح بعضهم يبشر ببداية عصر نهاية التاريخ . نظر هؤلاء الى ما حدث فى أوربا الشرقية على أنه دليل على صحة النظام الغربي، وسلامة الأيديولوجية الغربية وأعتبرها ستسود العالم بأجمعه . لم تتخل الصين بسكانها الذين يزيدون عن مجموع سكان قارتي أوربا الموحدة وأمريكا الشمالية عن

الأيديولوجية الشيوعية. وشكل هذا الوضع تهديدا لصحة الفرض القائل بنهاية التاريخ .

تشجع رئيس الولايات المتحدة فى بداية العقد الأخير من القرن العشرين وبشر بتشكل نظام عالمي جديد . نظام يأخذ فى الحسبان النتائج التى أفرزتها الأحداث الدولية التى بدأت مع منتصف عقد الثمانينات. نظام يدعى القائلون به أنه يقوم على التفاهم بين جميع الأطراف، واتفاقها على حل قضايا الخلاف بواسطة التفاوض السلمي، وتعاون الجميع للمحافظة على عالم لا تهدد أمنه واستقراره المشكلات الخطيرة .

لكن ، هل تكون بالفعل نظام عالمي جديد ؟ وهل يختلف النظام الحالي عن الأنظمة التى سبقته ؟ لقد شعر قادة الولايات المتحدة بأنهم كسبوا المعركة التى خاضوها ضد الاتحاد السوفيتي ومنظومته خلال الأربعين سنة الأخيرة . وأن هذه ستكون آخر المعارك فالوفاق والتفاهم والتعاون هو الذي سيحل محل الصراع والخصام . ويبدو أن هذا هو ما حدث بالفعل على مستوى القارة الأوربية. فحلف وارسو أنفرط ولكن حلف الأطلسي لم ينفرط بل أن أعضاء حلف وارسو يتسابقون للدخول فى حلف الأطلسي .

وبغض النظر عن خصائص النظام الذي تكون ، وبغض النظر عن تعريفاته فان وصفه بالجديد ليس جديدا . وكما هيكل : " ...فالفكرة ليست جديدة ، وتعبير (النظام العالمي الجديد) سبق استعماله عدة مرات . أستعمله وانستون تشرشل فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وهو يطالب بسيادة أنغلوساكسونية تفرض مشيئة المنتصرين فى الحرب بحق النصر على بقية الدنيا . ثم أن الرئيس

الأمريكي فراكلين روزفلت أستعمل التعبير نفسه سنة 1941 وهو يمهد لدخول الولايات المتحدة الى ميادين الحرب العالمية الثانية، ويبشر الدنيا بجنة بعد الحرب متحررة من الفقر والجهل والمرض والظلم السياسي والاجتماعي (هيكل، 1994 :10). لكن هل يمكن اختصار العالم الى مجموعة دول أوربا وأمريكا الشمالية؟ على مستوى الفاعلين الرئيسيين لاشك أن أهمهم تركزوا فى الماضي فى أوربا ، ثم انضمت إليهم الولايات المتحدة فيما بعد . وما يجرى ألآن على الساحة الدولية عبارة عن استمرار لوضع دام قرونا . فالتسمية التى يعتبرها البعض جديدة هي قديمة المحتوى . فلا تزال بلدان غربية محدودة تحتكر أهم القرارات الدولية على مستوى الاقتصاد والبيئة والسياسة. ومشاركة بعض البلدان مثل اليابان على مستوى القرارات الدولية الرئيسة هي مشاركة محدودة ومحسوبة ومسموح بها مقدما . وتبقى مشاركة بقية بلدان العالم محدودة من حيث المجال ومن حيث الجغرافيا .

2-العولمة

العولمة مفهوم له ارتباط بالنظام العالمي ويحظى هذه الأيام باهتمام الكتاب والباحثين، وأصبح للكتابات حوله مكان بارز فى أدبيات العلوم الاجتماعية . فلا يكاد يمر يوم لا تقع فيه العين على هذا المفهوم فى الكتابات الصحفية العامة ، وفى المجلات والدوريات المتخصصة . كما لا يكاد يمر يوم لا يسمع فيه السامع هذا المفهوم فى الأحاديث التى تبثها محطات الإرسال المرئي أو برامج الإذاعة المسموعة. لقد أرتبط استخدام المفهوم بعدد من المفاهيم ذات العلاقة

مثل : العالم القرية ،والاعتماد المتبادل ، والشركات متعدية الجنسية ، والمنظمات الأهلية متعدية الجنسيات ، واقتصاد الرفاه الخ..

لا شك أن البعد ألأقتصادى للمفهوم هو الذي يحظى بنصيب الأسد من النقاش والتوضيح والتعليق ، ولاشك أيضا أن الاقتصاد كان ولا يزال أهم دوافع الإنسان للعمل وللنشاط . وقد لعب التبادل التجاري دورا رئيسيا فى تحديد العلاقات بين البلدان المختلفة منذ القدم . ألا أن التغير الذي طرأ على طريقة التبادل التجاري خلال العقود الأخيرة جعل لهذا الأسلوب نمطا جديدا متميزا . فقد صارت رؤوس الأموال تتنقل عبر الحدود الجغرافية والحدود السياسية بسهولة تحت غطاء لا يتعارض و الكرامة الوطنية ، فهي تتنقل باسم الاستثمار الخارجي ، وحرية التجارة التى أزالت الحواجز الجمركية . وقد ساعدت عوامل كثرة على سرعة انتشار هذه الأفكار لعل أهمها حالة الفقر التى كانت عليها بلدان كثيرة . فقر مادي، وفى الخبرات الحديثة ، وفقر فى توظيف الثقافة توظيفا واسعا. وتفاوت المجتمعات من حيث الإمكانات الاقتصادية، فالبون بينها شاسع جدا . حيث يسيطر عدد صغير من بلدان العالم على أكبر قدر من الإمكانات الاقتصادية . والعدد الصغير من هذه المجتمعات المسيطرة والتي يمكن تسميتها بالبلدان الغنية اقتصاديا تضم نسبة متواضعة من حجم سكان الكرة الأرضية. بينما تشكل البلدان الفقيرة غالبية بلدان العالم وغالبية السكان . لذلك انتشرت رؤوس الأموال انطلاقا من عدد صغير من البلدان باتجاه بقية بلدان العالم . وهى تسير فى أغلب الأحيان فى طريق ذي اتجاه واحد . وبالطبع تمكنت بعض البلدان خلال السنوات الأخيرة من أن يكون طريق انتقال رؤوس الأموال أليها طريقا ذا اتجاهين.

إن وجـود الشـركات ذات الإمكانيـات الماليـة الضـخمة، والتطور السريع فى التقانة وخصوصا فى مجال الاتصالات سهل انتقال رؤوس الأموال عبر الحدود. فقد ألغى التطور الذي حدث فى مجال الاتصـالات الحـدود السياسيـة، وأختصـر الـزمن، ووحـد نوعيـة التطلعات مستوياتها. لا تقتصر العلاقات الاقتصادية بين بلدان العالم على انتقال رؤوس الأموال وتبادل السلع والمواد، بل أن المبادلات تتسع لتشمل مختلف جوانب الحياة وفى مقدمتها النسق الثقافي بما فيه من قيم ومعايير تتضمن العادات وتحدد الذوق العام فى مختلف مجالاته من كيفية اللباس، الى ألوان الطعام ، إلى أنواع الموسيقى .

عمـل خـلال حقبـة القطبيـة الثنائيـة كـل معسـكر علـى تحصيـن أعضاء المجتمعات التى تدور فى فلكه ضد تأثير المعسكر الآخر. شملت أدوات التحصين التى لجأ إليها المعسكر الشرقي غلق الأبـواب التـى يمكـن أن يتسـرب منهـا التـأثير الغربـي وفـى مقـدمتها وسـائل الاتصـال بمختلف أنواعها حتى وصف هذا المعسكر من قبل الغـرب بمجتمعـات مـا وراء السـتار الحديـدي . كمـا شملـت الوسـائل البرامج التعليميـة ، والدعايـة المضادة، وبناء المجتمع الذي يتساوى فيه الجميـع فـى الإمكانـات الماديـة . وظفـت الولايـات المتحـدة الأمريكيـة إمكاناتها فى هـذا الاتجـاه حيـث أنتجـت البـرامج التعليميـة والبـرامج الإعلامية صورة سلبية عن النظام الشيوعي وصورة كئيبة للفرد الذي يعيش فى تلك المجتمعات . بل بلغ الأمر درجة من التحيـز خلال ما يعرف فى أمريكا بالحقبة الماكرثية بحيث كانت فيه تهمة الشيوعية إذا وجهت لمواطن أمريكي فأنه يتعرض لسلسلة من الإجراءات لا تبتعد كثيرا عن تلك التى عرفتها أوربا أبان ما يعرف بمحاكم التفتيش. وبعد

تفكك الاتحاد السوفيتي فأن المجتمعات التى بقيت بعيدة بعض الشيء عن هذه التأثيرات الخارجية تقلصت الى الصين وكوريا الشمالية وكوبا الى حد ما .توحي لفظة العولمة أو الكوكبة كما يقترح إسماعيل صبري عبد الله التى يراها ترجمة أفضل للمصطلح الإنجليزي (عبد الله ، 1996) . معاني متعددة بتعدد المجال الذي تستعمل فيه . ففي مجال الاقتصاد مثلا تعنى علاقات خارج سيطرة الدولة الواحدة . تشير الى سوق تجارية بدون حدود وأفراد تجمعهم مصالح متبادلة متحررين من صفة الوطنية أو القومية. ويفترض فى مثل هؤلاء الأفراد أنهم يتشابهون فى ظروف الحياة وفى القيم التي تتحكم فى الحياة الاقتصادية بحيث تتوحد أذواقهم وطموحاتهم وتوقعاتهم (الجبالى ، 1996 : 5) وتعنى أيضا فى هذا المجال أن الأفراد بغض النظر عن انتماءاتهم الوطنية يدخلون فى حالة تنافس فى الإنتاج وفى التسويق. يبدو هذا أمر عادى وقد يكون جيدا على فرض أن المشاركين فى النشاط متساوون من حيث الخصائص والظروف التى يتطلبها النشاط . لكن الواقع غير هذا فأعضاء المجتمع الدولي غير متساويين لا فى المعرفة والخبرة، ولا فى الإمكانات المادية، ولا فى الظروف المحيطة . ففي مجال الاقتصاد الفروق جد شاسعة. وكما يشير الحبالى :" وتتقاسم خمسة بلدان رئيسية هي الولايات المتحدة واليابان وفرنسا وألمانيا وبريطانيا فيما بينها 172 شركة من أكبر مائتي شركة فى العالم " (الجبالى ، 1996 : 6) . وتوضح أرقام الجدول رقم (1) نصيب بعض البلدان المصدرة فى التجارة . وكما هو واضح فأن الولايات المتحدة حافظت منذ منتصف الخمسينات على الترتيب الأول على الرغم من تناقص نسبتها العامة من 19٪ فى العام 1955 الى 6 . 12٪ . كما بلغت حصة البلدان الخمسة التى أشرنا إليها آنفا فى

عام1993 43 ٪ بعد أن كانت فى العام 1955 .7 .0 54 ٪ . كما توضح الأرقام الواردة في نفس الجدول نمو حصص عدد من البلدان الأسيوية التى استطاعت أن تكسب لنفسها حصة فى التجارة العالمية وهى مجموعة الدول الصينية: الصين وهونكونج وتايوان ثم كوريا ثم سنغافورة. وقد استطاعت هذه البلدان الخمسة مجتمعة أن ترفع حصتها من 1 .9 ٪ فى عام 1955 الى 7 .12 ٪ فى عام 1993 . وتسيطر هذه البلدان العشرة مجتمعة على أكثر من نصف التجارة العالمية .

يهتم إسماعيل صبري عبد الله بحصر القضايا أو الظواهر والمؤسسات التى يمكن أن يطلق عليها قضايا كوكبية بطبيعتها ومؤسسات كوكبية بطبيعتها . فيذكر من القضايا استخدام أعالي البحار، واستخدام الفضاء الخارجي، واستخدام القارة القطبية الجنوبية، وصيانة البيئة ، وتنقل الأفراد عبر الحدود السياسية ، وحالة الفقر ، الجريمة المنظمة . ويعدد من المؤسسات جمعيات فعل الخير، ومنظمات حقوق الإنسان، ومنظمات حركات السلام ، ومنظمات حماية البيئة ، والمنظمات النسائية (عبد الله ، 1996). ويفترض أن القضايا المعولمة تهم جميع أعضاء المجتمع الدولي .

لكن يلاحظ أن عددا محدودا من البلدان الغنية فرضت سيطرتها ووضعت الجميع أمام الأمر الواقع كما يلاحظ فى حالة استغلال الفضاء الخارجي والقارة القطبية وحتى أعالي البحار . أما بالنسبة للمؤسسات المعولمة فقد أثبت بعضها وخصوصا الذي لا يتبع الحكومات أنه بإمكانها عبور الحدود، والتعرض لقضايا تهم جميع البشر،

والتأثير على السياسات القومية التى تعكس مصلحة خاصة، ونقصد مصلحة البلد الواحد .

كما توحي لفظة العولمة فى مجال الثقافة بمعناها الأنثروبولوجي أن هناك خصائص ثقافية ذات طابع عالمي . خصائص ثقافية متحررة من تأثير ثقافة بعينها وتصلح لأن يأخذ بها الأفراد المنتمون الى ثقافات ومجتمعات متباينة . لكل ثقافة نسق من القيم والمعايير وأن هذا النسق متأثر الى درجة كبيرة بالدين السائد . ويفترض فى الخصائص الثقافية التى تناسب العولمة عدم تعارضها مع الأنساق المحلية للقيم . فهي ، نظريا ، خصائص تطورت نتيجة تعاون ثقافات كثيرة تمكنت من تطوير صياغة توفيقية . أو كما يكتب عبد الله عبد الدائم : " وغنى عن البيان أن مثل هذا التفاعل بين الثقافات العالمية ينبغي أن يؤدى فى النهاية الى تقارب عملي قوامه وضع مجموعة من الثوابت العالمية الثقافية التى نبغي أن تعمل الثقافات جميعها على احترامها وتعميق جذورها . وتوليد مثل هذه الثوابت وقبولها أمر ممكن إذا هو تم عن طريق الحوار الحقيقي ، وحل محل فرض ثوابت ثقافة معينة أو بلد معين على العالم كله ، والادعاء بأنها هي وحدها الثوابت العالمية " تاريخيا ، تأثرت الثقافات التى التقت ببعضها البعض، فاستعارت من الثقافات الأخرى وأثرت فيها. حدث هذا فى حالات الجوار الجغرافي، وفى حالات الصدامات العسكرية التى أدت الى انتصار شعب على شعب آخر ، وحدثت أيضا عن طريق السفر والإقامة . إذ لعبت وسائل الأنصال الدور الرئيسي لانتقال الخصائص الثقافية من ثقافة الى أخرى . ولأن وسائل الأنصال القديمة كانت بسيطة وبطيئة،

كان انتقال الخصائص الثقافية بطيئا ومحدودا. وتاريخيا ، حاولت ثقافات غزو ثقافات أخرى ومحوها من أذهان أصحابها .

حدث هذا فى بعض حالات الاستعمار عندما حاول الاستعمار فرض ثقافته بالقوة على الشعب الذي أستعمر . لكن بعض الثقافات دخلت فى صراع مرير ولم ترضخ بسهولة للهيمنة الثقافية للمستعمر، ولم تخسر كل شئ. انتهى عصر الاستعمار وحافظت هذه الثقافات على أصالتها . لكن يرى البعض أن صراع الثقافات لم ينته بانتهاء عصر الاستعمار ، ويرى أن الصراعات الخطيرة القادمة سيأخذ شكل صدام ثقافات . ونقصد بها تلك الصيحة التى أطلقها فى صيف عام 1993 صامويل هانتينجتون مدير معهد الدراسات الإستراتيجية بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة . فقد أوحت له ما سماه البعض بالصحوة الإسلامية ، ومحاولات بعث الهويات الثقافية الخاصة للمجموعات ألا ثنية التى ظهرت بعد تفكك الاتحاد السوفيتي بهذه الدعوة التى لا تخلو من مشاعر التحيز ضد الصحوات التى يراها تشكل خطرا على السيطرة الثقافية الغربية .

ثورة الاتصالات اصطلاح يطلق على التطور السريع الذي حدث فى مجال الاتصالات خلال النصف الثاني من القرن العشرين . وهى بالفعل ثورة لما نتج عنها من تغييرات واسعة المجال قلبت الأوضاع رأسا على عقب . اصبح العالم يعيش اليوم فى وضع بالنسبة لوسائل الاتصالات كأنه قرية واحدة . فالوسائل تعددت، وسرعتها بلغت مدى لم يعرفه الإنسان من قبل ، ولا يحتاج إنسان اليوم إلا تحريك أصابعه ليتصل بجميع أنحاء الكرة الأرضية، وبعدد هائل من مراكز ومصادر المعلومات، ويتابع برامج البث المرئي التابعة لجميع

بلدان العالم . لكن هذه الثورة غيرت من قواعد اللعبة بالنسبة لانتقال الخصائص الثقافية . فالشعوب بثقافاتها المختلفة ليست لها نفس الإمكانات المعرفية والتقانية والمالية . لذلك فأن الكفة مالت الى جانب عدد صغير من الشعوب لتسيطر على وسائل الاتصالات المتقدمة ، ولتبعث إلى الآخرين ما تريد وليس بالضرورة ما تريد معرفته من خبرة وتقانة وخدمات وقيم وعادات ، واكتفت بقية الشعوب بدور المتلقي .

4-النتائج السلبية للعولمة

الحديث حول طبيعة الآثار السلبية الناتجة عن العولمة فى المجتمع العربي حديث قد يطول لو حاول المرء تناول أكبر عدد من الآثار لذلك سنقتصر على عينة منها . والحديث حول الآثار السلبية حديث يتعلق بعضه بالحاضر وأغلبه بالمستقبل . الحديث حول الحاضر حديث يصف الواقع لكن الحديث عن المستقبل حديث يهدف الى رسم صورة لم تظهر بعد في محاولة لرسم مشهد أو أكثر . يتمنى الذي يقدم على بناء مشاهد مستقبلية أن تقترب المشاهد من الحقيقة بقدر الإمكان . لكن رسم صورة حقيقية للمستقبل ليس بالأمر السهل . فالتنبؤ فى مجال العلوم الاجتماعية أمر فى غاية الصعوبة.

ومع أنني أنتمي لفئة من الباحثين الموظفين للأمبيريقة ، والقائلين بإمكانية تطوير قوانين فى العلوم الاجتماعية ، فأنني أعترف بأن الوصول الى قوانين لها نفس خصائص قوانين العلوم الطبيعية أمر غير ممكن طالما ظلت الظاهرة الاجتماعية فى حالة تغير مستمر أى أنها غير جامدة كما هي فى حالة العلوم الطبيعية. فالمتغيرات التى تؤثر

obeikandl.com

فى سير الظاهرة الاجتماعية هي نفسها فى حالة تغير دائم . لذلك فأن أقصى ما يمكن التوصل إليه فى مجال استشراف المستقبل بالنسبة للظاهرة الاجتماعية هو التوصل الى عدد من التعميمات التى تشير الى ما يمكن أن يتطور من اتجاهات . لذلك فسنجتهد لرسم تصور لما يمكن أن ينشأ من آثار سلبية فى ضوء معرفتنا ببعض خصائص المتغيرات التى يمكن أن تلعب الأدوار الهامة آخذين فى الاعتبار مسار الظواهر المماثلة كما تشكلت على أرض الواقع المعاش ، وكما تطور خلال الحقب التاريخية الماضية .

يجرنا الحديث حول النتائج السلبية للعولمة التى يمكن أن تلحق بالنسق الثقافي للمجتمع العربى الى التوقف عند مفهوم واسع الاستعمال فى أدبيات العلوم الاجتماعية وهو مفهوم التغير الاجتماعي . والنسق الثقافي هو المعني فى المكان الأول بالتغير . إذ تتبدل مكونات النسق كما تتبدل العلاقات بينها . والتغير الاجتماعي ظاهرة عرفتها جميع مجتمعات العالم . وخلال مسيرة تاريخ بناء المجتمعات البشرية تعرضت هذه المجتمعات بمراحل مختلفة من التغير الاجتماعي بعضها سريع وبعضها بطيء . طال بعضها جميع أنساق المجتمع وأقتصر بعضها على أنساق محدودة أو حتى على جوانب بعينها . وقد أطلق الباحثون على هذه الأنواع أسماء ميزتها . ولعل التحديث هو من بين أهم هذه الأسماء. فالتحديث نوع من أنواع التغير الاجتماعي يتميز بعدد من الخصائص التى يمكن التعرف عليها وقياسها . وهو التغير الاجتماعي المتميز بالأخذ بأسباب الحياة العصرية . ولأن هذه الأسباب صارت مطلبا للجميع فقد عملت كل المجتمعات على الحصول

علـى أكـبر قـدر مـن هـذه الأسـباب وعلـى تـوفير أكـبر كمية مـن مستلزمات الحياة العصرية .

يـرى عـدد مـن المتخصصـين فـى العلـوم الاجتماعيـة الـذين اهتمـوا بدراسـة ظـاهرة التحـديث بـأن للتحـديث نموذجـا أو نمطـا واحـدا ، وأن الأنسـاق الاجتماعيـة المختلفـة والأنسـاق الثقافيـة المختلفـة تتجـه نحـو التشـابه كلمـا قطعـت البلـدان المختلفـة شـوطا علـى سـلم التحـديث . وبعبـارة أخـرى فـان النسـقين الاجتمـاعي والثقـافي لبلـد بـدأ مسـيرة التحـديث فـى نقطـة زمنيـة متـأخرة بالنسـبة لبلـدان سـبقته سـتميل الى التشـابه فـى الخصـائص مـع الأنسـاق الاجتماعيـة والثقافيـة للبلـدان التـى تقـدمت علـى سـلم التحـديث(Inkeles,1981) . يقـوم هـذا النـوع مـن التحليل علـى رصـد الكيفيـة التـى سـارت بهـا بعـض المؤشـرات الحيويـة الهامـة فـى المجتمعـات التـى أخـذت بأسـباب التحـديث مثـل معـدلات التمدرس، والولادات، والوفيات، ونمو السـكان ، واسـتخدام التقانـة ، ونوعهـا الخ.. فقـد لـوحظ أنـه كلمـا قطـع مجتمـع مسافـة علـى سـلم التحـديث كلمـا اتجهـت مثـل هـذه المعـدلات نحـو وجهـة معينـة . فمـثلا بالنسبة لدخول الصغار الى المدارس فأن المعدلات تتجه نحـو نقطـة معينـة وهـى وصـول المجتمـع الى حالـة يصبح فيهـا كـل طفـل فـى سـن المدرسـة مسـجلا بالفعـل فـى المدرسـة . بينمـا تتجـه معـدلات الوفيـات بالنسـبة للأطفال خلال السنوات الأولى نحو الانخفاض . وتتجه معدلات الـولادات أيضا إلى الانخفاض . قد تبتدئ معدلات المجتمعات المختلفـة مـن نقـاط أو مستويات مختلفة كمعدلات الوفيات بالنسبة للأطفال خـلال السنـة الأولى مثلا فى عام 1950 . وأذا حسبت المعدلات فيما بعد كـل عشـر سـنوات فـأن المعـدلات سـتتجه نحـو نفـس الوجهـة . قـد لا تصـل جميـع

المجتمعات خلال فترة زمنية معينة الى نفس النقطة ، لكن تسير جميع المعدلات نحو نفس الاتجاه على اعتبار أن مسيرة هذه المجتمعات على سلم التحديث لم تتوقف . يقدم هذا اللون من ألوان تفسير ظاهرة التغير الاجتماعي تبريرا لحالات تقليد الشعوب لبعضها أو الاستعارة من بعضها . ومن الناحية النظرية يمكن أن يستعير أفراد أى مجتمع من أفراد أى مجتمع آخر، ويمكن تبادل الاستعارات ، أي أن يسير التأثر فى طريق ذي اتجاهين ، وأن يتسع مجالها ليشمل قيما وعادات وأنماطا سلوكية الى جانب المعدات والوسائل . لكن الذي حدث فى الماضي على أرض الواقع أن بلدا يصدر وآخر يستورد . وقديما قال أبن خلدون " المغلوب مولع بتقليد الغالب " . والمغلوب هنا هم شعوب العالم الثالث . ويرى البعض أن شركات كبرى بعينها نجحت في فرض نموذج بعينه وترويجه بمختلف الوسائل عبر مختلف بقاع العالم . وأذا كانت شركتا الماكدونالد والبيبسى كولا الشركتان اللتان تأتيان على رأس القائمة عند الحديث عن هذه الناحية ، فأن القائمة طويلة وتشتمل على عدد كبير من الشركات والمؤسسات الغربية والأمريكية بصفة خاصة . لكن هنالك آراء أخرى تخالف هذا الرأي وتقول بأن للتحديث أكثر من نموذج وأن مؤشرا ته تأخذ أكثر من اتجاه . وأن بعض الخصائص الاجتماعية والثقافية يمكن أن تتشابه ألا أنه تظل خصائص أخرى ذات طابع محلى لتميز نسق اجتماعي بعينه ونسق ثقافي بعينه. فأخذ المجتمع العربى مثلا بأسباب التحديث نتج عنه تحسن فى الدخل وانخفاض فى معدلات الأطفال الصغار، ولم ينتج عنه انخفاض في عدد الولادات ولا تباطؤ فى معدلات نمو السكان (التير ، 1992 :). ولعل حركة التوجه نحو البحث عن الهوية الثقافية المحلية التى ظهرت على أنقاض تفكك كل من الاتحاد السوفيتي

ويوغسلافيا تعزز فرضية الخصوصية الثقافية ، وتشكك فى مقولة إمكانية تحول العالم الى قرية ذات ثقافة واحدة.

لعل أحد أهم صفات المجتمعات المعاصرة بأنها مجتمعات الاستهلاك الواسع. فألأستهلاك صفة لازمت الإنسان منذ القدم ، لكن الاستهلاك الكثير والمتنوع والواسع والمستمر هي صفة حديثة . وهى صفة جذرتها المجتمعات الغربية محليا ثم سعت الى تصديرها الى الخارج. لقد مر حين من الدهر تقاسمت فيه حفنة من البلدان الأوربية جميع أطراف المعمورة . وخلال فترة الاستعمار المباشر هذه عمل المستعمر بغض النظر عن البلد المنتمى إليه بكل الوسائل الى نقل ثقافته بما فيها من لغة وقيم وعادات وتقاليد وطريقة حياة الشعوب التى استعمرها. لذلك حتى بعد أن انحسر الاستعمار بقيت آثاره مطبوعة فى النسقين الثقافي والاجتماعي . وقد سهل هذا الوضع عملية استمرار التأثير الغربي والترويج لما يصدره الغرب .

لقد خضعت أقطار الوطن العربى باستثناء عدد محدود منها للاستعمار الغربي المباشر . وترك هذا الاستعمار بصمات واضحة منها ما حدث فى بقية بلدان العالم . ودخلت الأقطار العربية المستقلة فى علاقات مع بعضها البعض ومع الآخر والذي يشمل الغرب بما فيه أمريكا الشمالية فى الغالب ، شملت التجارة والثقافة والسياحة والمعاهدات والأحلاف فى بعض الحالات . وإمكانات العرب من الثروات الطبيعية باستثناء النفط متواضعة ، لكن النفط ثروة لعبت الدور الهام فى تغيير شكل حياة العرب خلال العقود الأخيرة . وقد وفرت مبيعات النفط ثروة مالية ضخمة وخصوصا خلال فترة الوفرة عندما ارتفعت أسعار النفط الخام لتصل الى أرقام قياسية . ومع أن النفط لم يتفجر فى

جميع الأقطار، ألا أن الجميع حصل من دخله على نصيب . كما أن الجميع على مستوى الأفراد صرف دخل النفط فى نفس المجالات ونقصد الاستهلاك الواسع. فالعمال الزراعيون الذين تركوا الحقل ليعملوا فى البلدان النفطية لم يوظفوا ما حصلوا عليه من أموال فى تطوير مزارعهم، أو فى مشروع استثماري، وانما فى اقتناء أكبر كمية من المواد الاستهلاكية المعمرة وغير المعمرة وفى مجالات تتصل بتحسين مستوى السكن والتنقل ، ولا يخصص للتطوير والاستثمار سوى نسبة متواضعة مما رجع به المهاجر من الخارج (فرجاني ، 1988 : 156 - 157). لقد أدى هذا الاتجاه العام الى أن أصبح العربى العادي يضع اقتناء أكبر كمية من المواد الاستهلاكية على قائمة أولويات الأهمية والمطالب والأهداف العامة فى الحياة . فصارت قائمة المواد الاستهلاكية ضمن أولى شروط بناء الحياة الزوجية. ولعبت وسائل الأعلام المرئية دورا رئيسيا فى توحيد مستوى الطموح ألأستهلاكى. لكن هذا التوحد لم يلغ الفوارق بين الأفراد بل شكل ضغوطات على أعضاء شريحة اجتماعية كبيرة من شرائح المجتمع نتيجة عجزها عن مجاراة الآخرين ألا إذا فكروا فى أتباع وسائل غير مشروعة.

يمكن التمييز أكثر من نوع من أنواع الاستهلاك مثل الاستهلاك الترفى والاستهلاك التافه . هذان نوعان من مظاهر التأثيرات ت السلبية للعولمة . فالاستهلاك الترفى هو ذلك الاستهلاك المبالغ فى تكاليفه. فبدلا من اقتناء سلعة ضرورية لها ثمن معروف يختار المرء دفع عشرة أضعاف الثمن لشراء نفس السلعة التى أخرجت بشكل مزخرف أو جميل ولكنها تؤدى نفس المهمة . ويلاحظ أن بعض المصانع الغربية تخصصت فى صناعات من هذا النوع والتي لا

تجد لها رواجا الا فى الأسواق العربيــة . كما يلاحظ أن العرب اليوم يبــالغون فــى اقتنــاء المشــغولات الذهبيــة، ويتبــارى الصــناع فــى أعــداد مشغولات جديدة، واعطائها أسماء متميزة ،وفى وقت قصير تصبح هذه على قائمــة التوصيات والمقتنيات والمشروطات. كما يأخذ الاستهلاك الترفى شكلا آخر يتمثل فى تكديس السلع بحيث يحتوى المسكن على عدد كبير من نفس السلعة. ويلاحظ هذا بالخصوص بالنسبة للسيارة وللمقتنيات الإلكترونية .

ونعنى بألأستهلاك التافه عملية شراء مقتنيات أدخلت عليها إضافات لا تزيد من جودتها ولكنها ترفع من ثمنها. بعض هذه المقتنيات عبارة عن سلع لا تصلح آلا لتضييع الوقت والمال. وتلعب وسائل الأنصال الجماهيري كبرامج الإذاعة المرئية، وشبكات الأنصال الإلكترونية، والشراء بواسطة الطلب من بعيد، وتسهيلات الدفع فى الترويج لهذا السلع . يرى البعض أن الانبهار بما يأتي من الخارج مرحلة آنية تنتهي بعد فترة". ومن جهة أخرى، لم تنجح الامركة الثقافية على الرغم من انتشار الثقافة الشعبية الأمريكية، ثقافة الجينز وموسيقى البوب والوجبات السريعة، الذي يخلق انبهارا سريعا فى المجتمعات التى كانت مغلقة ، ولكنه سرعان ما يبهت ويبقى محدود الأثر من حيث قدرته على تشكيل منظومة قيم عالية "(حتى ، 1995 : 15) .ألا أن الذي يتجول فى شوارع المدن العربية لا يمكنه ألا أن يلاحظ التواجد الواضح لعناصر الثقافة الأمريكية الشعبية .

ويساهم هذان النوعان من الاستهلاك فى هدر جزء من الدخل ، وفى تطوير عادات غير مفيدة . ولو كانت هذه السلع تصنع محليا لعملت ولو الى حد على تنشيط الدورة الاقتصادية وساهمت فى توفير

عدد من مواقع الشغل . لكن كل هذه السلع تصنع فى خارج العالم العربى ويدفع العرب عملتهم الصعبة لشرائها . وهى عملة بدأت كميتها فى التقلص منذ منتصف الثمانينات . وأصبحت الحاجة لكل قرش منها تزداد كل يوم .

لقد أدت السوق المعولمة الى دخول الجميع لحلبة التنافس على إنتاج سلعة واحدة. هذا التوجه يؤدى من الناحية النظرية الى ارتفاع مستوى الجودة وتدنى السعر التى تصل بها الى المستهلك . ولو كان العالم بالفعل قرية بمعنى ارتباط الجميع بعلاقات اجتماعية قائمة على التعاون والتضامن لعادت هذه النتيجة على الجميع بالنفع . لكن العالم قرية فقط من حيث تمكن الأقوياء لتوصيل معلوماتهم وأخبارهم الى الآخرين . لكن من حيث بقية الصفات فالعالم غابة تزدحم بمختلف أنواع الوحوش المتصارعة . فلا أمل للمؤسسات الصغيرة أن تدخل فى منافسة متكافئة مع الشركات الضخمة متعددة الجنسيات . لذلك فأن الذي سيحصل هو تدهور مستمر فى الصناعات المحلية التقليدية وغيرها ، وينسحب المتاجرون فيها من السوق ، وعلى من أراد منهم البقاء فى الميدان استبدالها بالمصنوعات المستوردة والوافدة . وبعض هذا حدث بالفعل فى العالم العربى ولا يحتاج العربى بغض النظر عن بلده إلا أن يتفحص ملبسه ومكونات مسكنه ليرى مدى عملية الاحتلال التى تعرض لها بلده . وإذا كان بعض العرب يفخر بأنه لم يغير من طبيعة ملبسه كما فى السعودية والخليج ألا أن هؤلاء احتفظوا من اللباس العربي بالشكل فقط أما الباقي فهو مستورد . ولم تستطع المؤسسات الصغيرة المحلية التنافس مع الشركات الضخمة فى تنفيذ المشاريع التنموية التى نفذت فى الأقطار العربية وخصوصا النفطية . استفادت

مختلف الشركات الأوربية ثم الأسيوية فيما بعد من عمليات تنموية ضخمة . وضاعت على العرب فرصة نادرة لبناء خبرات وطنية ، وتكوين فئة وطنية من المقاولين وأصحاب الأعمال .

كما أدت عولمة الاتصالات وسيطرة حفنة من البلدان على صناعة البرامج، وعلى تصديرها الى أن يصدر الآخر للعرب ما لا يؤمن به ويريد من الآخرين تبنيه كما هو حاصل مثلا بالنسبة للديموقراطية وحقوق الإنسان ،والحريات الشخصية ، وتنظيم الولادات، وحتى حماية البيئة . يريد الغرب أن يلتزم الآخر بجميع هذه القضايا كما يعرفها الغرب ، وكما يتصورها. ويفرض على العرب مواد وأدبيات ومعايير تتعارض مع القيم العربية الإسلامية مثل ما يحدث من تضخيم وتبرير لقضايا الجنس والشذوذ والمخدرات . فباسم حقوق الإنسان والحريات الشخصية تروج ألآن بعض المؤسسات الغربية لكم هائل من الأفكار الهدامة والممارسات الشاذة . وقد يقول قائل لا تفتحوا أجهزة الإذاعة المرئية على برامجهم ، ولا تسمحوا لمنشوراتهم بعبور الحدود، ولا تدخلوا لشبكاتهم الإلكترونية. نظريا قد يبدو هذا ممكنا ولكن من الناحية العملية فمثل هذا الخيارغير ممكن . فغلق النوافذ والأبواب أصبحت مهمة فى غاية الصعوبة. وأصعب منها إنتاج برامج محلية منافسة، وتلفت النظر، وتستحوذ على الاهتمام.

5-مكونات الهوية الثقافية العربية

الحديث حول المكونات الثقافية العربية حديث يحتاج الى مجال واسع . فهذه واحدة من أغنى ثقافات العالم ولأصحابها تاريخ طويل . وخلال هذا التاريخ الطويل ساهم أصحاب هذه الثقافة فى اغنائها وتطويرها. والثقافة بالمعنى الواسع تشتمل على كل ما له صلة بتنظيم

حياة الفرد من المهد الى اللحد. وبغض النظر عن المستوى الذي وصلت إليه الثقافة فكل واحدة لها مكونات أربعة : نسق للقيم ونسق للمعتقدات وعناصر معرفية وعناصر رمزية (التير ، 1996 : 48). والثقافة الغنية المتطورة هي الثقافة التى تكاملت فيه مكونات هذه العناصر كما فى الثقافة العربية . فالمعتقد الديني موجود ولا يحتاج الى تغيير أو تحديث. ولا يعنى هذا أن باب الاجتهاد قد قفل، انه مطلوب على مستوى التفسير الذي يفترض أن يتناسب مع ظروف العصر ويأخذ فى الحسبان التطور الذي يحدث فى العناصر المعرفية على المستوى الدولي . والعناصر الرمزية والتي تعنى اللغة بصورة خاصة يحق للعرب أن يفتخروا بها . فلا أحد ينكر أن اللغة العربية غنية بمفرداتها وبقواعدها وبإمكانية تطورها ومسايرتها لروح العصر. النسق لقيمي العربى لم يترك لا شاردة ولا واردة من القضايا التى تتعلق بتنظيم حياة اجتماعية سليمة بغض النظر عن نمط الاستيطان وزمانه. أما العناصر المعرفية والتي تشير بصفة خاصة للكيفية التى تنظم بها الثقافة المعارف فى المجالات المختلفة. وتاريخيا ساهم العرب بنصيب هام فى تطوير المعارف العلمية وأخذ الآخرون عنهم. ومع أن التطور العلمى يستفيد منه جميع أفراد البشر إلا أن الظروف التى مر بها المجتمع العربى ساهمت فى تخلفهم نسبيا عن مواكبة الركب . هذا التخلف يمكن أن يزول أو تخف حدته نظريا وخصوصا بعد الانتشار الواسع للتعليم . لكنه أمر لم يحدث عمليا بعد لتوفر عدد من الأسباب الجوهرية من بينها نظام ومكونات العملية التعليمية وخصوصا فيما يتعلق باستخدام اللغة العربية والأخذ بأسباب النهج العلمى فى التفكير وطبيعة العلاقة مع الثقافات الأخرى.

6 – التعليم العالي فى الوطن العربى والهوية الثقافية

حافظ العرب ولقرون عديدة على هويتهم الثقافية . واشتهروا بالتفاخر بهويتهم خلال جميع العصور بما فى ذلك العصور التى انكسرت فيها شوكتهم العسكرية واستعمروا من قبل أقوام تفوقت عليهم عسكريا واقتصاديا وعلميا. حتى أثناء هذه الظروف الصعبة لم يسجل التاريخ أن العرب فى عمومهم تخلوا عن المفاخرة بهويتهم الثقافية . وحتى فى أتسوأ الظروف وأقساها تفنن العرب فى تطوير أساليب وبرامج للتعليم حفظت للعرب عروبتهم وحافظت على هويتهم. فلم يفقدوا دينهم ولا لغتهم ولا قيمهم كما حدث مع شعوب كثيرة بعضها لم يستعمر بنفس القسوة أو لفترة مماثلة . كما أصر العرب طوال عهود الاستعمار على التشبث بجميع مظاهر الهوية الثقافية العربية .

وجاء الوقت الذي انحسر فيه الاستعمار البغيض الذي ذهب يجرجر أذيال الهزيمة والعار. لم يضيع العرب وقتا فى العمل بجد على تعويض ما فاتهم فاتجهوا جميعا نحو التعليم الحديث ينهلون من مناهله المختلفة بهدف اللحاق وفى أقصر وقت ممكن بركب البلدان التى قطعت شوطا كبيرا فى طريق الحداثة. أنتشر التعليم فى جميع أرجاء الوطن العربى ، ولم تمض فترة طويلة حتى انتشر التعليم العالي بجميع أشكاله ومجالاته ومستوياته.

التعليم العالي العربى ليس نظاما واحدا فمع مقومات التوحيد الموجودة فى المجتمع العربى الكبير إلا أن الظروف التى قادت الى ظهور هذا العدد الكبير من الوحدات السياسية ساهمت فى وجود أنظمة مختلفة للتعليم العالي فى الوطن العربى . ويمكن اختصار هذه الاختلافات وبهدف التبسيط الى نظامين رئيسيين يتأثر أحدهما

obeikandl.com

بنظام التعليم الفرنسي ويتأثر الآخر بنظام التعليم الانجلوسكسونى. لكن ، ومع ذلك يمكن تمييز صفات عامة مشتركة للتعليم العالي العربى لعل أهمها :

أ – سياسة الباب المفتوح

قررت السلطات العربية الرسمية فتح باب العليم العالي لجميع الراغبين من الطلبة الذين أنهوا بنجاح مرحلة الدراسة الثانوية . فهو ليس موجها للنخبة فقط بغض النظر عن الكيفية التى يتم بها تعريف النخبة. بل أن بعض البلدان اتبعت سياسة التوجيه الرسمي الى الجامعات والتخصصات. فتنشر فى بداية العام الدراسي أسماء طلبة الناجحين فى امتحان إتمام الدراسة الثانوية وأمام اسم كل منهم أسم الكلية الجامعية التى وجه للدراسة إليها . وعادة ما تتم هذه العملية على ضوء النسب المئوية للنتائج التى حصلها الطالب. وباستثناء لبنان وبعد مدة مصر ولفترة قريبة جدا تولت الدولة مسئولية إنشاء وتعهد مؤسسات التعليم العالي . وحتى بعد أن بدأت مؤسسات التعليم العالي الخاصة تظهر على خريطة بلدان عربية أكثر فان نسبة طلابها لمجموع الطلاب بسيطة جدا.

ب – مجانية التعليم

تولت الدولة فى كل قطر عربي مسؤولية توفير التعليم العالي للجميع وبدون مصاريف وحسنا فعلت. فعندما حصلت كل دولة عربية مع استثناءات محدودة على استقلالها كان أغلب مواطنيها من الفقراء الأميين وشبه الأميين . ولو لم تعمل الحكومات العربية هذا لما وصل انتشار التعليم العالي ما وصل إليه الآن فقد ارتفعت أعداد المنتسبين إليه بسرعة كبيرة وهى أكبر عند مقارنتها بما حدث فى بلدان

أخرى (القاسم ، 1997 : 23 - 24) . ومع أن معدلات الانتشار ما تزال متدنية بمقارنتها بنظيراتها فى البلدان المتقدمة ، فإمكان الدول العربية أن تفخر بإنجازاتها الكمية فى مجال التعليم العالي .

ج – تكوين رأس المال البشرى

تمثل الهدف الرئيسي للتعليم العالي العربى حتى الآن فى تكوين الأطر للعمل فى مختلف المجالات. فغالبية مخرجات التعليم العالي تدخل السلك الوظيفي وخصوصا فى دواوين الحكومة. وقد عملت بعض الحكومات الى توجيه المتخرجين من التعليم الجامعي على مختلف مجالات العمل فى الحكومة . لذلك تعود الحاصلون على شهادات التعليم العالي على أن تؤمن الحكومة لهم فرصا للعمل . وتوجد ضمن هيكلية الحكومة فى أغلب البلدان العربية وزارة خاصة أو إدارة خاصة مهمتها تنظيم دخول الحاصلين الجدد على شهادات عليا الى سوق العمل. لكن وبمرور الوقت أصبحت مهمة حصول كل صاحب شهادة عليا على وظيفة حكومية أمرا صعبا ، فقد تشبع الجهاز الحكومي فى أكثر من بلد عربي. وجاء الوقت الذي عرفت فيه الأقطار العربية بطالة المتعلمين .وتبين أن سياسة تولى الحكومة مسئولية إيجاد وظيفة لكل صاحب شهادة ليست رشيدة . فقد أصبحت دواوين الحكومية مكانا يتكدس فيه الموظفون الذين لا ينتجون بمعدلات عالية . كما أصبح الفرد معتمدا على الحكومة لكي تتولى توظيفه وتعود الفرد على الأتكالية .

د - الفصل بين التعليم العالي والبحث العلمى

يفترض وجود علاقة قوية ما بين التعليم العالي والبحث العلمى. وهذه العلاقة موجودة فى بلدان كثيرة وخصوصا التى تنعت بالمتقدمة . لكن يلاحظ أن التعليم العالي فى البلاد العربية غير مرتبط بالبحث العلمى . وهذا وضع غير طبيعي تسببت فيه عوامل كثيرة لعل أهمها التكاليف الباهضة للبحث العلمى وتقاعس البلدان العربية عن تخصيص نسبة مناسبة من الدخل القومي للصرف على هذا المجال. فيلاحظ حتى فى الأقطار العربية المصنفة غنية عدم حصول النشاط البحثي على الاهتمام الذي يستحقه . ومع أن الأنفاق على التعليم العالي يعتبر عاليا فى الأقطار العربية إلا انه يلاحظ أن نسبة ما يخصص من الدخل القومي للتعليم العالي هي أقل فى بعض الأقطار العربية النفطية بالمقارنة بما يخصص من الناتج القومي فى أقطار عربية غير نفطية . فكما تبين أرقام الجدول رقم (2) فان النسبة المئوية الأعلى كانت من حظ لبنان والأردن وتأخرت أقطار مثل الكويت والقطر الى المرتبة الخامسة ، كما دخلت ليبيا والإمارات ضمن الترتيب السابع والأخير والذي ضم أيضا جيبوتي واليمن والصومال.

لا شك أن تطوير البحث العلمى المحلى أمر فى غاية الأهمية لكن الأقطار العربية خصصت إمكانياتها لنشر التعليم العالي على أوسع نطاق ممكن . إلا أنه يجب عدم النظر الى التعليم العالي ككم فقط فالكيف مهم جدا . والكيف يرتبط بعوامل كثيرة منها درجة كفاءة هيئة التدريس، ونسبتهم للطلبة ،

والإمكانات الفنية المساعدة . والبحث العلمى المحلى يفيد فى الرفع من مستوى أعضاء هيئة التدريس، والتطبيق العملي لما يدرس ، وتوطين المعرفة العلمية وتطبيقاتها التقانية.

ذكرنا آنفا أن الانتشار الكمي يشير الى أحد جوانب واحد من جوانب العملية التعليمية، ونذكر انه إذا وجد العرب مبررا لنشر التعليم العالي بأسرع وقت ممكن فأن الوقت قد حان لكي يولى العناية يصبح التعليم العربى فى مستوى نظرائه فى الدول الأخرى خصوصا ونحن نعيش عصرا تقصر فيه المسافات وتشتد فيه مظاهر التنافس من أجل التفوق. وإذا حق لعرب التسعينات أن يتفاخروا بإنجازاتهم الكمية فى مجال التعليم بصفة عامة والتعليم العالي بصفة خاصة فان الحديث عن الكيف حديث ذو شجون . ومع أن مستويات التعليم تؤثر على عملية فى بناء الشخصية وفى تحديد هويتها الثقافية فان المسؤولية تقع على التعليم العالي لتحديد ملامح الشخصية وتحديد خصائص الهوية الثقافية ودرجة نقاوتها .ففي هذا المستوى من التعليم ترتفع درجة وحجم العلاقات مع الثقافات الأخرى وتتحدد طبيعة هذه العلاقات. لذلك فان العبء الأكبر يقع على هذا المستوى من التعليم عندما يكون الحديث حول الهوية الثقافية. ففي هذه المرحلة يتعرض الفرد بدرجة أكبر لعوامل التأثير الفكري الخارجي . وقد يؤدى هذا التأثير الى أخطار كثيرة تهدد سلامة الثقافة وسلامة وتماسك المجتمع من غزو ثقافي الى استلاب ثقافي الى جماعات الأفكار الهدامة .

لقد استعمرت أجزاء الوطن العربى من قبل دول أوربية مختلفة . ثم انزاح كابوس الاستعمار ولكن قبل أن يترك وراءه آثارا . ودون الدخول فى متاهات حصر هذه الآثار والمقارنة بينها نقول أن مجال

التعليم وخصوصا العالي من بين أهم المجالات التى تبدو فيها هذه الآثار واضحة . كما اختلفت أجزاء الوطن العربى فى طبيعة الاستعمار الذي تعرضت أختلف فى طول فترته وفى عمق تأثيره وبالتالي فى طبيعة الآثار التى خلفها وراءه. وبدون التفصيل فى أسباب الاختلاف فى آثار الاستعمار فان واحدا منها يستحق الإشادة . لقد تعلم جيل من أبناء البلد أبان الاستعمار. بعض أعضاء هذا الجيل انبهرت بنمط حياة المستعمرين بدرجة عالية الى درجة محاولة التشبه بهم فى كل شئ . وتبدأ عملية التشبه باستخدام اللغة ثم ينتشر ليشمل مختلف جوانب الحياة . حافظ هؤلاء على انبهارهم حتى بعدما رحل الاستعمار ولأنهم حصلوا على نصيب من التعليم فانهم كونوا الأطر الرئيسية للحكومة الوطنية حديثة الاستقلال. وحرصوا فى مجال التعليم على أن يستمر مرتبطا بنظام التعليم الاستعماري قلبا وقالبا. لذلك يوجد اليوم فى أقطار عربية مضى على استقلالها أربعون سنة أو يزيد من يفاخر بأنه لا يجيد اللغة العربية حتى فى مستوى حياة التخاطب اليومية. وفى بعض الأقطار العربية فرض أعضاء هذه النخبة المتعلمة نمط تفكيرهم على الأغلبية. فلغة الكتابة والنقاش فى مؤتمرات علمية كثيرة تجمع فقط مواطني المغرب العربى ليست العربية. كما أن لغة التدريس فى مجالات معرفية متعددة وفى أقطار عربية كثيرة ليست اللغة العربية . ولا تستعمل اللغة العربية كلغة التعليم فى كليات الطب إلا فى قطر واحد.

إن تعلم لغة أجنبية أو أكثر عمل مفيد لكل فرد بغض النظر عن موقعه الاجتماعي. كما أن معرفة أكثر من لغة من شأنه أن يوسع مدارك الفرد. وفى أحيان كثيرة وفى مجالات معرفية كثيرة اللغة الأجنبية ضرورة وليست من قبيل التبجح. لكن إهمال اللغة ألأم

والتنصل منها هو ضرب من الاغتراب الذي يشكل تهديدا لاستمرار الهوية الثقافية.

obeikandl.com